تفسير سورة هود عليه السلام

وهى مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الر ۚ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝٣ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٤ ﴾

قد تقدم الكلام على حروف الهجاء فى أول سورة البقرة ، وبالله التوفيق.

وأما قوله: ﴿ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ اى: هى محكمة فى لفظها، مفصلة فى معناها، فهو كامل صورة ومعنى. هذا معنى ماروى عن مجاهد، وقتادة، واختاره ابن جرير ﴿ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ أى: من عند الله الحكيم فى أقواله، وأحكامه، الخبير بعواقب الامور. ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أى: نزل هذا القرآن المحكم المفصل لعبادة الله وحده لا شريك له، كقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥]، وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦]

وقوله: ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ اى: إنى لكم نذير من العذاب إن خالفتموه، وبشير بالثواب إن أطعتموه، كما جاء فى الحديث الصحيح: أن رسول الله ﷺ صعد الصفا، فدعا بطون قريش الاقرب ثم الاقرب ، فاجتمعوا ، فقال : « يامعشر قريش، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا تصبحكم ،أكنتم مصدقى ؟ » فقالوا : ماجربنا عليك كذبا . قال : « فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد »(١) .

وقوله: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ اى: وآمركم بالاستغفار من الذنوب السالفة والتوبة منها إلى الله عز وجل فيما تستقبلونه ، وأن تستمروا على ذلك ﴿ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا﴾ اى : فى الدنيا ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ أى: فى الدار الآخرة، قاله قتادة، كقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل:٩٧] ، وقد جاء فى الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال لسعد : « وإنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله ، إلا أجرت بها، حتى ما تجعل فى فى امرأتك »(٢) .

وقوله: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾: هذا تهديد شديد لمن تولى عن أوامر الله تعالى، وكذب رسله، فإن العذاب يناله يوم معاده لا محالة، ﴿ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ اى: معادكم يوم القيامة، ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾أى: وهو القادر على ما يشاء من إحسانه إلى أوليائه، وانتقامه من أعدائه، وإعادة الخلائق يوم القيامة، وهذا مقام الترهيب، كما أن الأول مقام ترغيب.

(١) البخارى (٤٩٧١) .
(٢) البخارى (٦٣٧٣) ، ومسلم (٥/١٦٢٨) .

﴿ أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥ ﴾

قال ابن عباس: كانوا يكرهون أن يستقبلوا السماء بفروجهم، وحال وقاعهم، فأنزل الله هذه الآية. وفى لفظ آخر له : أناس كانوا يستحيون أن يتخلوا، فيفضوا إلى السماء ، وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء، فنزل ذلك فيهم. روى البخارى عن ابن عباس: ﴿ يستغشون﴾: يغطون رؤوسهم(١) . وقال ابن عباس فى رواية أخرى فى تفسير هذه الآية: يعنى به الشك فى الله، وعمل السيئات، وكذا روى عن مجاهد، والحسن، وغيرهم: أى أنهم كانوا يثنون صدورهم إذا قالوا شيئاً أو عملوه، يظنون أنهم يستخفون من الله بذلك، فأعلمهم الله تعالى أنهم حين يستغشون ثيابهم عند منامهم فى ظلمة الليل ﴿ يعلم ما يسرون﴾ من القول ﴿ وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور﴾ أى : يعلم ماتكن صدورهم من النيات والضمائر والسرائر. وما أحسن ما قال زهير بن أبى سلمى :

فَلا تكتمنَّ الله مافى نفوسكم ليخفى، فمهما يُكتم الله يَعلم

وقال عبد الله بن شداد: كان أحدهم إذا مر برسول الله ﷺ ثنى صدره ، وغطى رأسه فأنزل الله ذلك. وعود الضمير على الله أولى؛ لقوله: ﴿ ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾.

الجزء ١٢ ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٦ ﴾

أخبر تعالى أنه متكفل بأرزاق المخلوقات من سائر دواب الأرض، صغيرها وكبيرها، بحريها وبريها، وأنه ﴿ يعلم مستقرها ومستودعها﴾ أى: يعلم أين مُنتهى سيرها فى الأرض، وأين تأوى إليه من وكرها، وهو مستودعها. وقال ابن عباس : ﴿ ويعلم مستقرها ﴾ أى: حيث تأوى، ﴿ ومستودعها﴾، حيث تموت. وعن مجاهد: ﴿ مستقرها ﴾ فى الرحم ﴿ ومستودعها ﴾ فى الصلب ، وأن جميع ذلك مكتوب فى كتاب عند الله مبين عن جميع ذلك، نقوله : ﴿ وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون ﴾ [الأنعام:٣٨] ، وقوله : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ [الأنعام:٥٩]

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ۝٧ وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحۡبِسُهُۥٓۗ أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٨ ﴾

يخبر تعالى عن قدرته على كل شىء، وأنه خلق السموات والأرض فى ستة أيام، وأن عرشه كان

---

(١) البخارى (٤٦٨١ ـ ٤٦٨٣) .

على الماء قبل ذلك، كما روى مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ : « إن الله قدّر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء »(١) . وروى البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « قال الله عز وجل: أنفق أُنفق عليك » . وقال: «يد الله ملأى لا يَغيضها نفقة، سحّاءَ الليلَ والنهار» وقال «أفرأيتم ما أنفق منذ خلق السماء والأرض، فإنه لم يَغض مافى يده، وكان عرشه على الماء، وبيده الميزان يخفض ويرفع »(٢) . وروى الإمام أحمد عن أبى رَزين ـ واسمه لَقِيط بن عامر بن المنتفق العُقَيْلى ـ قال: قلت: يارسول الله، أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال : « كان فى عَمَاء، ما تحته هواء وما فوقه هواء ، ثم خلق العرش بعد ذلك » . وقد رواه الترمذى ، وابن ماجه . وقال الترمذى: هذا حديث حسن(٣) .

وقال مجاهد : ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ قبل أن يخلق شيئا. قاله قتادة، وابن جرير، وغير واحد. وقال قتادة: ينبئكم كيف كان بدء خلقه قبل أن يخلق السموات والأرض. وقال ابن عباس: إنما سمى العرش عرشا لارتفاعه.

وقال ابن إسحاق فى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾: فكان كما وصف نفسه تعالى، إذ ليس إلا الماء وعليه العرش، وعلى العرش ذو الجلال والإكرام، والعزة والسلطان، والملك والقدرة، والحلم والعلم، والرحمة والنعمة، الفعال لما يريد.

وقوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ أى: خلق السموات والأرض لنفع عباده الذين خلقهم ليعبدوه وحده لا شريك له، ولم يخلق ذلك عبثا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص:٢٧] ، وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ . فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون:١١٥، ١١٦] ، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦] .

وقوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ أى: ليختبركم ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ ولم يقل: أكثر عملا، بل ﴿أَحْسَنُ عَمَلاً﴾، ولا يكون العمل حسنا حتى يكون خالصا لله عز وجل، على شريعة رسول الله ﷺ . فمتى فقد العمل واحدا من هذين الشرطين بطل وحبط.

وقوله: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ : يقول تعالى: ولئن أخبرت يامحمد هؤلاء المشركين أن الله سيبعثهم بعد مماتهم كما بدأهم، مع أنهم يعلمون أن الله تعالى هو الذى خلق السموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف:٨٧]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت:٦١]، وهم مع هذا ينكرون البعث والمعاد يوم القيامة، الذى هو بالنسبة إلى القدرة أهون من البداءة، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧]، وقال تعالى: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾[لقمان:٢٨] .

وقولهم : ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أى: يقولون كفرا وعنادا : مانصدقك على وقوع البعث، وما يذكر ذلك إلا مَنْ سَحَرْتَه ، فهو يتبعك على ماتقول.

(١) مسلم (١٦/٢٦٥٣) .
(٢) البخارى (٤٦٨٤) .
(٣) المسند (٤/١١) ، والترمذى (٣١٠٩) ، وابن ماجه (١٨٢) .

وقوله: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾ يقول تعالى: ولئن أخرنا العذاب والمؤاخذة عن هؤلاء المشركين إلى أجل معدود وأمد محصور، وأوعدناهم به إلى مدة مضروبة، ليقولن تكذيبا واستعجالا: ﴿مَا يَحْبِسُهُ﴾ أى: يؤخر هذا العذاب عنا، فإن سجاياهم قد ألفت التكذيب والشك، فلم يبق لهم محيص عنه ولا محيد.

و«الأمة» تستعمل فى القرآن والسنة فى معان متعددة، فيراد بها: الأمد، كقوله فى هذه الآية: ﴿إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ وقوله فى يوسف: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥] ، وتستعمل فى الإمام المقتدى به، كقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠] ، وتستعمل فى الملة والدين، كقوله إخبارا عن المشركين أنهم قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] ، وتستعمل فى الجماعة، كقوله: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] ، وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: ٤٧] .

والمراد من الأمة هاهنا: الذين يبعث فيهم الرسول مؤمنهم وكافرهم، كما فى صحيح مسلم: «والذى نفسى بيده، لا يسمع بى أحد من هذه الأمة، يهودى ولا نصرانى، ثم لا يؤمن بى إلا دخل النار»(١) . وأما أمة الاتباع، فهم المصدقون للرسل، كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وفى الصحيح: «فأقول: أمتى أمتى»(٢) .

وتستعمل الأمة فى الفرقة والطائفة، كقوله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩]، وقال تعالى: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾[آل عمران: ١١٣].

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ۝ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝﴾

يخبر تعالى عن الإنسان وما فيه من الصفات الذميمة، إلا من رحم الله من عباده المؤمنين، أنه إذا أصابته شدة بعد نعمة، حصل له يأس وقنوط من الخير بالنسبة إلى المستقبل ، وكفر وجحود لماضى الحال ، كأنه لم ير خيرا، ولم يرج بعد تلك فرجا . وهكذا إن أصابته نعمة بعد نقمة ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ أى : يقول : ما بقى ينالنى بعد هذا ضَيْم ولا سوء ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ أى: فرح بما فى يده، بطر فخور على غيره.

قال الله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أى: على الشدائد والمكاره ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى: فى الرخاء والعافية ﴿أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ أى: بما يصيبهم من الضراء ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ بما أسلفوه فى زمن الرخاء، كما جاء فى الحديث : «والذى نفسى بيده ، لا يصيب المؤمن هَمٌّ ولا غَمٌّ ، ولا نَصَب ولا وَصَب ، ولا حَزَن حتى الشوكة يشاكها ، إلا كَفَّرَ اللهُ عنه بها من خطاياه»(٣) ، «والذى نفسى

(١) مسلم (١٥٣/ ٢٤٠) .
(٢) البخارى (٧٥١٠) .
(٣) مسلم (٢٥٧٣، ٢٥٧٤/ ٥٢) .

بيده، لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له ، إن أصابته سراء فشكر كان خيرا له، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيرا له، وليس ذلك لأحد غير المؤمن »(١) ، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ وَالْعَصْرِ. إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [سورة العصر] ، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا. إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا . وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا. إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ الآية [المعارج: ١٩ ـ ٢٢].

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالى مسليًا لرسوله ﷺ ، عما كان يتعنت به المشركون، فيما كانوا يقولونه عن الرسول : ﴿ وَقَالُوا مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا . أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان:٧، ٨]. فأمر الله تعالى رسوله ﷺ وأرشده إلى ألا يضيق بذلك منهم صَدْرُه، ولا يصدّنه ذلك ولا يُثْنِيه عن دعائهم إلى الله عز وجل آناء الليل وأطراف النهار، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ [الحجر: ٩٧]، وقال هاهنا : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا ﴾ أى : لقولهم ذلك، فإنما أنت نذير، ولك أسوة بإخوانك من الرسل قبلك، فإنهم كُذِّبوا وأوذُوا فصبروا حتى أتاهم نصر الله عز وجل.

ثم بين تعالى إعجاز القرآن ، وأنه لا يستطيع أحد أن يأتى بمثله ، ولا بعشر سور مثله ، ولا بسورة من مثله ؛ لأن كلام الرب لا يشبهه كلام المخلوقين ، كما أن صفاته لا تشبه صفات المحدثات ، وذاته لا يشبهها شيء ، تعالى وتقدس وتنزه ، لا إله إلا هو ولا رب سواه.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ أى: فإن لم يأتوا بمعارضة ما دعوتموهم إليه ، فاعلموا أنهم عاجزون عن ذلك، وأن هذا الكلام منزل من عند الله ، متضمن علمه وأمره ونهيه ﴿ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ .

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

قال ابن عباس فى هذه الآية : إن أهل الرياء يعطون بحسناتهم فى الدنيا ، وذلك أنهم لا يظلمون نقيرا ، يقول : من عمل صالحا التماس الدنيا ، صوما أو صلاة أو تهجدا بالليل، لا يعمله إلا التماس الدنيا ، يقول الله تعالى : أوفيه الذى التمس فى الدنيا من المثابة ، وحبط عمله الذى كان يعمله التماس الدنيا ، وهو فى الآخرة من الخاسرين .وهكذا روى عن مجاهد ، والضحاك ، وغير واحد .وقال قتادة: من كانت الدنيا همه وطَلِبَته ونيته، جازاه الله بحسناته فى الدنيا، ثم يفضى إلى الآخرة وليس له حسنة يعطى بها جزاء. وأما المؤمن فيجازى بحسناته فى الدنيا ويثاب عليها فى الآخرة . قال

(١) مسلم (٢٩٩٩/ ٦٤) بنحوه .

تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا . وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا . كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا . انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ١٨ ـ ٢١] ، وقال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى: ٢٠]

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

يخبر تعالى عن حال المؤمنين الذين هم على فطرة الله تعالى التى فطر عليها عباده، من الاعتراف له بأنه لا إله إلا هو، كما قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ الآية [الروم: ٣٠] ، وفى الصحيح عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يُهَوِّدانه ويُنَصِّرانه ويُمَجِّسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جَمْعاء، هل تُحِسُّون فيها من جدعاء ؟ » (١) .

وقوله: ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ أى : وجاءه شاهد من الله، وهو ما أوحاه إلى الأنبياء، من الشرائع المطهرة المُكَمِّلَة المعظَّمة المُخْتَتَمَة بشريعة محمد، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين. ولهذا قال ابن عباس، ومجاهد، والسُّدِّى، وغير واحد فى قوله تعالى: ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ إنه جبريل عليه السلام. وعن علىّ ، والحسن ، وقتادة: هو محمد ﷺ . وكلاهما قريب فى المعنى؛ لأن كلا من جبريل ومحمد، صلوات الله عليهما ، بلَّغ رسالة الله تعالى، فجبريل إلى محمد، ومحمد إلى الأمة .

ثم قال تعالى: ﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ ﴾ أى: ومن قبل القرآن كتاب موسى، وهو التوراة ﴿ إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ أى: أنزله الله تعالى إلى تلك الأمة إماما لهم، وقدوة يقتدون بها ، ورحمة من الله بهم. فمن آمن بها حق الإيمان قاده ذلك إلى الإيمان بالقرآن؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ .

ثم قال تعالى متوعدا لمن كذب بالقرآن أو بشىء منه: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ أى: ومن كفر بالقرآن من سائر أهل الأرض مشركهم وكافرهم وأهل الكتاب وغيرهم، من سائر طوائف بنى آدم على اختلاف ألوانهم وأشكالهم وأجناسهم، ممن بلغه القرآن، كما قال تعالى: ﴿ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨]. وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾. وفى صحيح مسلم عن أبى موسى الأشعرى، أن رسول الله ﷺ قال: «والذى نفسى بيده، لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى أو نصرانى، ثم لا يؤمن بى إلا دخل النار» (٢) .

قوله: ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ أى: القرآن حق من الله، لا مرية فيه ولا شك، كما قال تعالى: ﴿ الم . تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [السجدة: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿ الم . ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١، ٢]. وقوله: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سبأ: ٢٠] .

(١) البخارى (١٣٨٥) ، ومسلم (٢٦٥٨/٢٢) . (٢) مسلم (١٥٣/ ٢٤٠) .

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾

يبين تعالى حال المفترين عليه وفضيحتهم فى الدار الآخرة على رؤوس الخلائق ؛ من الملائكة، والرسل، والأنبياء، وسائر البشر والجان، كما روى الإمام أحمد عن صفوان بن مُحْرِز قال: كنت آخذاً بيد ابن عمر ، إذ عرض له رجل قال : كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول فى النجوى يوم القيامة ؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن الله عز وجل يدنى المؤمن، فيضع عليه كنَفَه، ويستره من الناس، ويقرره بذنوبه، ويقول له: أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قَرَّره بذنوبه، ورأى فى نفسه أنه قد هلك قال: فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا، وإنى أغفرها لك اليوم. ثم يعطى كتاب حسناته، وأما الكفار والمنافقون فيقول ﴿ الأَشْهَادُ هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ . أخرجه البخارى ومسلم (١) .

وقوله: ﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أى: يردُّون الناسَ عن اتباع الحق وسلوك طريق الهدى الموصلة إلى الله عز وجل ويجنبونهم الجنة ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أى : ويريدون أن يكون طريقهم عوجا غير معتدلة ﴿وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ أى: جاحدون بها مكذبون بوقوعها وكونها. ﴿ أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ أى: بل كانوا تحت قهره وغَلَبته ، وفى قبضته وسلطانه ، وهو قادر على الانتقام منهم فى الدار الدنيا قبل الآخرة، ولكن ﴿يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢] ، وفى الصحيحين: «إن الله ليُملى للظالم، حتى إذا أخذَه لم يُفْلته » (٢) ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ الآية أى: يضاعف عليهم العذاب، وذلك لأن الله تعالى جعل لهم سمعا وأبصارا وأفئدة، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم، بل كانوا صُمّاً عن سماع الحق، عُميا عن اتباعه، كما أخبر تعالى عنهم حين دخولهم النار: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠] ، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ ﴾ الآية [النحل: ٨٨] ؛ ولهذا يعذبون على كل أمر تركوه، وعلى كل نهى ارتكبوه؛ ولهذا كان أصحُّ الأقوال أنهم مكلفون بفروع الشرائع أمرها ونهيها بالنسبة إلى الدار الآخرة.

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أى: خسروا أنفسهم لأنهم أدخلوا نارا حامية، فهم معذبون فيها لا يُفَتَّر عنهم من عذابها طرفة عين، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧] . ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم ﴾ أى: ذهب عنهم ﴿ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ من دون الله من الأنداد والأصنام، فلم تُجْد عنهم شيئاً ، بل ضرتهم كل الضرر، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا

(١) المسند (٢/ ٧٤) ، والبخارى (٤٦٨٥) ، ومسلم (١٧٦٨/ ٦٤) .
(٢) البخارى (٤٦٨٦) ، ومسلم (٢٥٨٣/ ٦١) .

بعبادتهم كافرين﴾ [الأحقاف: ٦]، وقال تعالى: ﴿واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً . كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً﴾ [مريم: ٨١، ٨٢]، وقال الخليل لقومه: ﴿إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين﴾ [العنكبوت: ٢٥]، وقوله: ﴿ إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على خسرهم ودمارهم ؛ ولهذا قال : ﴿ لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون ﴾ يخبر تعالى عن حالهم أنهم أخسر الناس صفقة فى الدار الآخرة؛ لأنهم اعتاضوا عن نعيم الجنان بحميم آن، وعن الحور العين بطعام من غِسْلين ، وعن القصور العالية بالهاوية ، وعن قرب الرحمن ورؤيته بغضب الديان وعقوبته، فلا جرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾

ربع ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

لما ذكر تعالى حال الأشقياء ثَنَّى بذكر السُّعَداء، وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فآمنت قلوبهم وعَملت جوارحهم الأعمال الصالحة قولا وفعلا ، وبهذا ورثوا الجنات، المشتملة على الغرف العاليات ، والسرر المصفوفات ، والحسان الخيرات، والفواكه المتنوعات ، والنظر إلى خالق الارض والسموات ، وهم فى ذلك خالدون ، لا يموتون ولا يهرمون ولا يمرضون، ولا يتغوطون ، ولا يبصقون ولا يتمخطون ، إن هو إلا رَشْحُ مِسك يعرقون.

ثم ضرب تعالى مثل الكافرين والمؤمنين ، فقال : ﴿ مثل الفريقين ﴾ أى : الذين وصفهم أولا بالشقاء والمؤمنين السُّعَداء، فأولئك كالاعمى والأصم، وهؤلاء كالبصير والسميع. فالكافر اعمى عن وجه الحق فى الدنيا، وفى الآخرة لا يهتدى إلى خير ولا يعرفه، أصم عن سماع الحجج ، فلا يسمع ما ينتفع به ﴿ ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ﴾ الآية [الأنفال: ٢٣] ، وأما المؤمن فَفَطِن ذكى لبيب، بصير بالحق، يميز بينه وبين الباطل، فيتبعُ الخير ويترك الشر، سميع للحجة ، يفرق بينها وبين الشبهة ، فلا يَرُوج عليه باطل ، فهل يستوى هذا وهذا ؟.

﴿ أفلا تذكرون﴾ : أفلا تعتبرون فتفرقون بين هؤلاء وهؤلاء، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون﴾ [الحشر: ٢٠] وقال: ﴿ وما يستوي الأعمى والبصير. ولا الظلمات ولا النور. ولا الظل ولا الحرور. وما [illegible] ي الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور. إن أنت إلا نذير. إنا أرسلناك بالحق [illegible] وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾ [فاطر: ١٩ ـ ٢٤] .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

يخبر تعالى عن نوح ، عليه السلام ، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض من المشركين عَبَدة الأصنام أنه قال لقومه: ﴿إني لكم نذير مبين﴾ أى: ظاهر النِّذَارة لكم من عذاب الله إن أنتم عبدتم غير الله؛ ولهذا قال: ﴿أن لا تعبدوا إلا الله﴾، وقوله: ﴿ إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم ﴾ أى إن استمررتم

على ما أنتم عليه عذّبكم الله عذابا أليما مُوجعاً شاقًا فى الدار الآخرة. ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ ﴾ والملأ هم: السادة والكبراء من الكافرين منهم: ﴿ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ أى : لست بملك ، ولكنك بشر ، فكيف أوحى إليك من دوننا؟ ثم ما نراك اتبعك إلا أراذلنا كالباعة والحاكة وأشباههم ولم يتبعك الأشراف ولا الرؤساء ، ثم هؤلاء الذين اتبعوك لم يكن عن تَرَوّ منهم ولا فكرة ولا نظر، بل بمجرد ما دعوتهم أجابوك فاتبعوك ؛ ولهذا قال: ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ﴾ أى: فى أول بادئ الرأى ﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ يقولون : ما رأينا لكم علينا فضيلة فى خَلْق ولا خُلُق، ولا رزق ولا حال، لمَّا دخلتم فى دينكم هذا ﴿ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ أى: فيما تَدَّعونه لكم من البر والصلاح والعبادة، والسعادة فى الدار الآخرة إذا صرتم إليها. هذا اعتراض الكافرين على نوح، عليه السلام، وأتباعه، وذلك دليل على جهلهم وقلة علمهم وعقلهم، فإنه ليس بعار على الحق رَذَالة من اتبعه، فإن الحق فى نفسه صحيح، وسواء اتبعه الأشراف أو الأراذل ، بل الحق الذى لا شك فيه أن أتباع الحق هم الأشراف، ولو كانوا فقراء، والذين يأبونه هم الأراذل، ولو كانوا أغنياء. ثم الواقع غالبا أن ما يتبع الحق ضعفاء الناس، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفته، كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٣] ، ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان صخر بن حرب عن صفات النبى ﷺ ، قال له فيما قال: أشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم. فقال هرقل: هم أتباع الرسل.

وقولهم : ﴿ بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ﴾ ليس بمذمة ولا عيب؛ لأن الحق إذا وضح لا يبقى للتروى ولا للفكر مجال، والرسل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، إنما جاؤوا بأمر جلى واضح. وقولهم: ﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ هم لا يرون ذلك؛ لأنهم عُمْى عن الحق، لا يسمعون ولا يبصرون، بل هم فى ريبهم يترددون، فى ظلمات الجهل يعمهون، وهم الأفاكون الكاذبون، الأقلون الأرذلون، وفى الآخرة هم الأخسرون.

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

يقول تعالى مخبرا عما ردَّ به نوح على قومه فى ذلك : ﴿ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى ﴾ أى : على يقين وأمر جلى ، ونبوة صادقة ، وهى الرحمة العظيمة من الله به وبهم ﴿ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾ أى: خفيت عليكم، فلم تهتدوا إليها، ولا عرفتم قدرها، بل بادرتم إلى تكذيبها وردها ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا ﴾ أى: نغصبكم بقبولها ﴿ وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾ .

﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

يقول لقومه: لا أسألكم على نصحى لكم مالا ؛ أجرة آخذها منكم، إنما أبتغى الأجر من الله عز وجل ﴿ وَمَآ أَنَا بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ ، كأنهم طلبوا منه أن يطرد المؤمنين عنه، احتشاما ونفاسة منهم أن يجلسوا معهم، كما سأل أشالهم خاتم الرسل ﷺ أن يطرد عنهم جماعة من الضعفاء ويجلس معهم

مجلسا خاصا، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾ [الأنعام: ٥٢]، ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ [الكهف: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ الآيات [الأنعام: ٥٣].

﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

يخبرهم أنه رسولٌ من الله، يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ويخبرهم أنه لا يقدر على التصرف فى خزائن الله، ولا يعلم من الغيب إلا ما أطلعه الله عليه، وليس هو بملك من الملائكة، بل بشر مرسل، مؤيد بالمعجزات. ولا أقولُ عن هؤلاء الذين تحتقرونهم وتزدرونهم: إنه ليس لهم عند الله ثواب على إيمانهم ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ ﴾ فإن كانوا مؤمنين باطناً ، كما هو الظاهر من حالهم، فلهم جزاء الحسنى، ولو قطع لهم أحد بشر بعد ما آمنوا، لكان ظالما قائلا ما لا علم له به.

﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن استعجال قوم نوح نقمة الله وعذابه وسخطه، والبلاء موكل بالمنطق: ﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ﴾ أى: حاججتنا فاكثرت من ذلك، ونحن لا نتبعك ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ اى: من النقمة والعذاب، ادع علينا بما شئت، فليأتنا ما تدعو به ﴿ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ أى: إنما الذى يعاقبكم ويعجلها لكم الله الذى لا يُعجزُه شىء ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾ أي: أىّ شىء يُجدى عليكم إبلاغى لكم وإنذارى إياكم ونصحى، إن كان الله يريد إغواءكم ودماركم ﴿ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أى : هو مالك أزمة الأمور ، والمتصرف الحاكم العادل الذى لا يجور ، مالك الدنيا والآخرة.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

هذا كلام معترض فى وسط هذه القصة، مؤكد لها ، مقرر لها . يقول تعالى لمحمد ﷺ : أم يقول هؤلاء الكافرون الجاحدون: افترى هذا وافتعله من عنده ﴿ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي ﴾ اى: فإثم ذلك على ﴿ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ اى: ليس ذلك مفتعلا، ولا مفترى ، لانى أعلم ما عند الله من العقوبة لمن كذب عليه.

﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه أوحى إلى نُوح لما استعجل قومُه نقمة الله بهم وعذابه لهم، فدعا عليهم نوح دعوته التى قال الله تعالى مخبراً عنه أنه قال: ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح: ٢٦] ، ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠] ، فعند ذلك أوحى الله إليه: ﴿ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ ﴾ ، فلا تحزن عليهم ولا يَهُمَّنك أمرهم. ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ ﴾ يعنى: السفينة ﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴾ أى: بمرأى منا ﴿ وَوَحْيِنَا﴾ أى: تعليمنا لك ما تصنعه ، ﴿ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ .

وقوله: ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ﴾ أى: يهزؤون به ويكذبون بما يتوعدهم به من الغرق ﴿ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ ﴾ الآية ، وعيد شديد ، وتهديد أكيد ﴿ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ أى : يهينه فى الدنيا ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ أى: دائم مستمر أبدا.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾

هذه مُواعدة من الله تعالى لنوح، عليه السلام، إذا جاء أمر الله من الأمطار المتتابعة، والهتّان الذى لا يُقلع ولا يَفتُر، بل هو كما قال تعالى: ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ . وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ . وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ . تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ [القمر: ١١ ـ ١٤].

وأما قوله: ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ فعن ابن عباس: التنور: وجه الأرض، أى: صارت الأرض عيونا تفور، حتى فار الماء من التناتير التى هى مكان النار، صارت تفور ماء، وهذا قول جمهور السلف وعلماء الخلف.

فحينئذ أمر الله نوحا، عليه السلام، أن يحمل معه فى السفينة من كل زوجين ـ من صنوف المخلوقات ذوات الأرواح، قيل: وغيرها من النباتات ـ اثنين. ذكرا وأنثى .

وقوله : ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ أى: واحمل فيها أهلك، وهم أهل بيته وقرابته، إلا من سبق عليه القول منهم، ممن لم يؤمن بالله، فكان منهم ابنه «يام» الذى انعزل وحده، وامرأة نوح وكانت كافرة بالله ورسوله. ﴿وَمَنْ آمَنَ﴾ أى: من قومك ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أى: نَزْر يسير مع طول المدة والمقام بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاما، فعن ابن عباس: كانوا ثمانين نفسا منهم نساؤهم . وعن كعب الأحبار : كانوا اثنين وسبعين نفسا . وقيل : كانوا عشرة . والله أعلم وأحكم .

﴿ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾

ربع

يقول تعالى إخباراً عن نوح ،عليه السلام، أنه قال للذين أمر بحملهم معه فى السفينة: ﴿ارْكَبُوا فِيهَا

بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ أي: بسم الله يكون جريها على وجه الماء، وبسم الله يكون منتهى سيرها، وهو رُسُوّها.

وقال الله تعالى: ﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٢٨، ٢٩]؛ ولهذا تستحب التسمية في ابتداء الأمور: عند الركوب على السفينة وعلى الدابة، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ . لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ . وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢ ـ ١٤]، وجاءت السنة بالحث على ذلك، والندب إليه، كما سيأتي في سورة «الزخرف»، إن شاء الله. وقوله: ﴿ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ مناسب عند ذكر الانتقام من الكافرين بإغراقهم أجمعين ذكرُ أنه غفور رحيم، كما قال: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأعراف: ١٦٧]، وقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦]، إلى غير ذلك من الآيات التي يقرن فيها بين انتقامه ورحمته.

وقوله: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ أي: السفينة سائرة بهم على وجه الماء، الذي قد طبّق جميع الأرض، حتى طفت على رؤوس الجبال، وهذه السفينة على وجه الماء سائرة بإذن الله وتحت كَنَفه وعنايته، وحراسته وامتنانه كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ . لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١١، ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ . تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ . وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٣ ـ ١٥].

وقوله: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ ﴾ الآية: هذا هو الابن الرابع، واسمه «يام»، وكان كافرا، دعاه أبوه عند ركوب السفينة أن يؤمن ويركب معهم ولا يغرق مثل ما يغرق الكافرون ﴿ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ﴾ اعتقد بجهله أن الطوفان لا يبلغ إلى رؤوس الجبال، وأنه لو تعلق في رأس جبل لنجّاه ذلك من الغرق، فقال له أبوه نوح، عليه السلام: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾ أي: ليس شيء يعصم اليوم من أمر الله ﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾.

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

يخبر تعالى أنه لما غرق أهل الأرض إلا أصحاب السفينة، أمر الأرض أن تبلع ماءها الذي نبع منها واجتمع عليها، وأمر السماء أن تُقلعَ عن المطر ﴿وَغِيضَ الْمَاءُ﴾ أي: شرَع في النقص، ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي: فرغَ من أهل الأرض قاطبة، عن كفر بالله، لم يبق منهم ديّار ﴿وَاسْتَوَتْ﴾ السفينة بمن فيها ﴿عَلَى الْجُودِيِّ﴾ قال مجاهد: وهو جبل بالجزيرة، تشامخت الجبال يومئذ من الغرق وتطاولت، وتواضع هو لله عز وجل، فلم يغرق، وأرست عليه سفينة نوح عليه السلام. وقال قتادة: استوت عليه شهرا حتى نزلوا منها، قال قتادة: قد أبقى الله سفينة نوح، عليه السلام، على الجُودى من أرض الجزيرة عِبرة وآية حتى رآها أوائل هذه الأمة، وكم من سفينة قد كانت بعدها فهلكت، وصارت رماداً. وقال الضحاك: الجُودِيّ: جبل بالموصل. وقال بعضهم: هو الطور.

وقوله: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: هلاكاً وخسارا لهم، وبعدا من رحمة الله، فإنهم قد هلكوا

عن آخرهم، فلم يبق لهم بقية.

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

هذا سؤال استعلام وكشف من نوح، عليه السلام، عن حال ولده الذي غرق ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ أي: وقد وعدتني بنجاة أهلي، ووعدك الحق الذي لا يخلف، فكيف غرق وأنت أحكم الحاكمين؟ ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي: الذين وعدت إنجاءهم ؛ لأني إنما وعدتك بنجاة من آمن من أهلك ؛ ولهذا قال: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ [هود: ٤٠] ، فكان هذا الولد ممن سبق عليه القول بالغرق لكفره ومخالفته أباه نبيّ الله نوحا، عليه السلام.

وقد نص غير واحد من الأئمة على تخطئة من ذهب في تفسير هذا إلى أنه ليس بابنه، وإنما كان ابن زنية . وقال ابن عباس، وغير واحد من السلف: ما زنت امرأة نبي قط، قال: وقوله: ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ أي: الذين وعدتك نجاتهم . وقولُ ابن عباس في هذا هو الحق الذي لا محيد عنه ، فإن الله سبحانه أغير من أن يمكن امرأة نبي من الفاحشة ، ولهذا غضب الله على الذين رموا أم المؤمنين عائشة بنتَ الصِّدِّيق زوجَ النبي ﷺ ، وأنكر على المؤمنين الذين تكلموا بهذا وأشاعوه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١١ ـ ١٥]. وقال ابن عباس : هو ابنه غير أنه خالفه في العمل والنية . قال عكرمة : في بعض الحروف: « إنه عَمِلَ عملاً غير صالح » .

﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ ﴾

يخبر تعالى عما قيل لنوح، عليه السلام، حين أرست السفينة على الجوديّ، من السلام عليه، وعلى من معه من المؤمنين، وعلى كل مؤمن من ذريته إلى يوم القيامة . وقال ابن إسحاق : ولما أراد أن يكف الطوفان أرسل ريحا على وجه الأرض، فسكن الماء، وانسدت ينابيع الأرض وأبواب السماء، يقول الله تعالى : ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ﴾ الآية ، فجعل الماء ينقص ويَغيض ويُدْبِر، و﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا ﴾ الآية .

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ : هذه القصة وأشباهها ﴿ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ يعني: من أخبار الغيوب السالفة ﴿ نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ أي: نعلمك بها ونحيا منا إليك ﴿ مَا كُنْتَ

تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ﴾ أى: لم يكن عندك ولا عند أحد من قومك علم بها، حتى يقول من يكذبك: إنك تعلمتها منه ، بل أخبرك الله بها مطابقة لما كان عليه الأمر الصحيح، كما تشهد به كتب الأنبياء قبلك، فاصبر على تكذيب من كذبك من قومك، وأذاهم لك، فإنا سننصرك ونحوطك بعنايتنا، ونجعل العاقبة لك ولأتباعك فى الدنيا والآخرة، كما فعلنا بالمرسلين حيث نصرناهم على أعدائهم ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا ﴾ الآية [غافر: ٥١]، وقال تعالى: ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . إنهم لهم المنصورون ﴾ الآية [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣] ، وقال تعالى: ﴿فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾ .

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

يقول تعالى: ولقد أرسلنا ﴿إلى عاد أخاهم هودا﴾ آمرا لهم بعبادة الله وحده لا شريك له، وأخبرهم أنه لا يريد منهم أجرة على هذا النصح والبلاغ من الله، إنما يبغى ثوابه من الله الذى فطره ﴿ أفلا تعقلون﴾ من يدعوكم إلى ما يصلحكم فى الدنيا والآخرة من غير أجرة .

ثم أمرهم بالاستغفار الذى فيه تكفير الذنوب السالفة، وبالتوبة عما يستقبلون، ومن اتصف بهذه الصفة يسر الله عليه رزقه ، وسهل عليه أمره وحفظ شأنه ؛ ولهذا قال : ﴿ يرسل السماء عليكم مدرارا ﴾ [نوح: ١١] ، وفى الحديث : « من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا، ومن كل ضيق مخرجا، ورزقه من حيث لا يحتسب »(١) .

﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾

يخبر تعالى أنهم قالوا لنبيهم: ﴿ ما جئتنا ببينة ﴾ أى: بحجة وبرهان على ما تدعيه ﴿ وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك ﴾ أى: بمجرد قولك: «اتركوهم» نتركهم ﴿ وما نحن لك بمؤمنين ﴾ أى : بمصدقين ﴿ إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ﴾ يقولون : ما نظن إلا أن بعض الآلهة أصابك بجنون وخبل فى عقلك بسبب نهيك عن عبادتها وعيبك لها ﴿ قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون . من دونه ﴾ ، يقول: إنى برىء من جميع الأنداد والأصنام، ﴿فكيدوني جميعا﴾ أى: أنتم وآلهتكم إن كانت حقا ﴿ ثم لا تنظرون ﴾ أى: طرفة عين .

وقوله: ﴿ إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ﴾ أى تحت قهره وسلطانه ، وهو الحاكم العادل الذى لا يجور فى حكمه ، فإنه على صراط مستقيم. وقد تضمن هذا المقام حجة بالغة

(١) المسند (٢٢٣٤) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » ، وأبو داود (١٥١٨) ، وابن ماجه (٣٨١٩) .

ودلالة قاطعة على صدق ما جاءهم به، وبطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام التى لا تنفع ولا تضر، بل هى جَمَاد لا تسمع ولا تبصر، ولا تُوالى ولا تُعادى، وإنما يستحق إخلاص العبادة الله وحده لا شريك له، الذى بيده الملك، وله التصرف، وما من شىء إلا تحت ملكه وقهره وسلطانه، فلا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ ۖ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ﴾

يقول لهم هود: فإن تولوا عما جئتكم به من عبادة الله ربكم وحده لا شريك له ، فقد قامت عليكم الحجة بإبلاغى إياكم رسالة الله التى بعثنى بها ﴿ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ يعبدونه وحده لا يشركون به ، ولا يبالى بكم ، فإنكم لا تضرونه بكفركم ، بل يعود وبال ذلك عليكم ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ أى : شاهد وحافظ لأقوال عباده وأفعالهم ويجزيهم عليها إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا ﴾ وهو الريح العقيم ، فأهلكهم الله عن آخرهم ، ونجى هودا وأتباعه من عذاب غليظ برحمته تعالى ولطفه. ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ كفروا بها ، وعَصَوا رسل الله ، وذلك أن من كفر بنبى فقد كفر بجميع الأنبياء، لأنه لا فرق بين أحد منهم فى وجوب الإيمان به، فعاد كفروا بهود، فنزل كفرهم منزلة من كفر بجميع الرسل ﴿ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ : تركوا اتباع رسولهم الرشيد، واتبعوا أمر كل جبار عنيد. فلهذا أتبعوا فى هذه الدنيا لعنة من الله ومن عباده المؤمنين كلما ذكروا، وينادى عليهم يوم القيامة على رؤوس الأشهاد ﴿ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ﴾ الآية . قال السُّدِّى: ما بُعث نبى بعد عاد إلا لعنوا على لسانه.

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ۚ فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ ﴾ ربع

يقول تعالى: ولقد أرسلنا ﴿ إِلَىٰ ثَمُودَ ﴾ وهم الذين كانوا يسكنون مدائن الحجر بين تبوك والمدينة، وكانوا بعد عاد ، فبعث الله منهم ﴿ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ فأمرهم بعبادة الله وحده ؛ ولهذا قال: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ﴾ أى: ابتدأ خلقكم منها، خلق منها أباكم آدم ﴿ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أى: جعلكم عُمَّارا تعمرونها وتستغلونها ﴿ فَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾ لسالف ذنوبكم ﴿ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ فيما تستقبلونه ﴿ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ الآية [البقرة: ١٨٦] .

﴿ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ ﴾

يذكر تعالى ما كان من الكلام بين صالح، عليه السلام، وبين قومه، وما كان عليه قومه من

الجهل والعناد فى قولهم: ﴿ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا﴾ أى: كنا نرجوك فى عقلك قبل أن تقول ما قلت! ﴿أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ وما كان عليه أسلافنا ﴿ وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ أى : شك كثير .

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ فيما أرسلنى به إليكم على يقين وبرهان ﴿وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ وتركت دعوتكم إلى الحق وعبادة الله وحده، فلو تركته لما نفعتمونى ولما زدتمونى ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ أى: خسارة .

﴿ وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ ﴾

تقدم الكلام عليها فى سورة « الأعراف » (١) بما أغنى عن إعادته فلله الحمد والمنة .

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ ولما جاءت رسلنا ﴾ وهم الملائكة ﴿ إبراهيم بالبشرى ﴾ قيل : تبشره بإسحاق، وقيل: بهلاك قوم لوط. ويشهد للأول قوله تعالى: ﴿فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط ﴾ [هود: ٧٤]، ﴿قالوا سلاما قال سلام﴾ أى: عليكم. ﴿ فما لبث أن جاء بعجل حنيذ﴾ أى: ذهب سريعا ، فأتاهم بالضيافة، وهو عجل: فتى البقر، حنيذ: مشوى على الرضف، وهى الحجارة المحماة. هذا معنى ما روى عن ابن عباس ، وقتادة وغير واحد، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿ فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين . فقربه إليهم قال ألا تأكلون﴾ [الذاريات: ٢٦، ٢٧] . وقد تضمنت هذه الآية آداب الضيافة من وجوه كثيرة.

وقوله: ﴿ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم ﴾ تنكرهم ﴿ وأوجس منهم خيفة ﴾ وذلك أن الملائكة لاهمة لهم إلى الطعام ولا يشتهونه ولا يأكلونه؛ فلهذا رأى حالهم معرضين عما جاءهم به، فارغين عنه بالكلية فعند ذلك نكرهم ﴿ وأوجس منهم خيفة﴾.

وقوله تعالى إخبارا عن الملائكة : ﴿ قالوا لا تخف ﴾ أى قالوا: لا تخف منا، إنا ملائكة أرسلنا إلى

(١) راجع تفسير الآيات (٧٣ ـ ٧٨) .

قوم لوط لنهلكهم . فضحكت سارة استبشاراً بهلاكهم، لكثرة فسادهم، وغلَظ كفرهم وعنادهم، فلهذا جوزيت بالبشارة بالولد بعد الإياس. قال ابن عباس: ﴿ فضحكت ﴾ أي: حاضت. ﴿ فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ أي: يولد لها يكون له ولد وعقب ونسل؛ فإن يعقوب ولد إسحاق، كما قال في آية البقرة: ﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون ﴾ [البقرة: ١٣٣]. ومن هاهنا استدل من استدل بهذه الآية، على أن الذبيح إنما هو إسماعيل ، وأنه يمتنع أن يكون هو إسحاق ؛ لأنه وقعت البشارة به ، وأنه سيولد له يعقوب ، فكيف يؤمر إبراهيم بذبحه وهو طفل صغير ، ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده. ووعد الله حق لا خُلْفَ فيه، فيمتنع أن يؤمر بذبح هذا والحالة هذه، فتعين أن يكون هو إسماعيل وهذا من أحسن الاستدلال وأصحه وأبينه، ولله الحمد.

﴿ قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا ﴾ الآية : حكى قولها في هذه الآية، كما حكى فعلها في الآية الأخرى، فإنها ﴿ قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز ﴾ وفي الذاريات: ﴿فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم ﴾ [الذاريات: ٢٩]، كما جرت به عادة النساء في أقوالهن وأفعالهن عند التعجب. ﴿ قالوا أتعجبين من أمر الله ﴾ ؟ أي: قالت الملائكة لها : لا تعجبي من أمر الله ، فإنه إذا أراد شيئاً أن يقول له : « كن » فيكون ، فلا تعجبي من هذا، وإن كنت عجوزا عقيما ، وبعلك شيخا كبيرا، فإن الله على ما يشاء قدير. ﴿رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد﴾ أي: هو الحميد في جميع أفعاله وأقواله محمود، ممجد في صفاته وذاته؛ ولهذا ثبت في الصحيحين أنهم قالوا: قد علمنا السلام عليك، فكيف الصلاة عليك يارسول الله؟ قال: قولوا: «اللهم صلِّ على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم ، إنك حميد مجيد »(١).

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۖ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ ﴾

يخبر تعالى عن إبراهيم ، عليه السلام، أنه لما ذهب عنه الروع، وهو ما أوجس من الملائكة خيفة، حين لم يأكلوا، وبشروه بعد ذلك بالولد ، وأخبروه بهلاك قوم لوط، أخذ يقول: أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن ؟ قالوا : لا . قال : أفتهلكون قرية فيها مائتا مؤمن ؟ قالوا : لا، قال: أفتهلكون قرية فيها أربعون مؤمنا ؟ قالوا : لا. قال : ثلاثون ؟ قالوا: لا حتى بلغ خمسة قالوا: لا، قال: أرأيتكم إن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها؟ قالوا: لا. فقال إبراهيم عليه السلام عند ذلك: ﴿ إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته﴾ الآية [العنكبوت: ٣٢]، فسكت عنهم واطمأنت نفسه.

وقوله : ﴿ إن إبراهيم لحليم أواه منيب ﴾ مدح إبراهيم بهذه الصفات الجميلة ،وقد تقدم تفسيرها (٢) .

وقوله تعالى: ﴿ يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك ﴾ الآية ، أي : إنه قد نفذ فيهم القضاء،

(١) البخاري (٤٧٩٧) ، ومسلم (٤٠٦/٦٦) . (٢) راجع تفسير الآية (١١٤) من سورة براءة .

وحقّت عليهم الكلمة بالهلاك، وحلول الباس الذى لا يُرد عن القوم المجرمين.

﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ ﴾

يخبر تعالى عن قُدوم رسله من الملائكة بعد ما أعلموا إبراهيم بهلاكهم ، وفارقوه وأخبروه بإهلاك الله قوم لوط هذه الليلة. فانطلقوا من عنده، فأتوا لوطا ، عليه السلام، فى أرض له ، وقيل: فى منزله ، ووردوا عليه وهم فى أجمل صورة تكون، على هيئة شبان حسان الوجوه، ابتلاء من الله ، وله الحكمة والحجة البالغة، فساءه شأنهم وضاقت نفسه بسببهم، وخشى إن لم يُضيفهم أن يُضيفهم أحد من قومه، فينالهم بسوء ﴿ وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ قال ابن عباس وغير واحد : شديد بلاؤه وذلك أنه علم أنه سيدافع عنهم، ويشق عليه ذلك. وقال السدى: خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط، فبلغوا نهر سدوم نصف النهار ، ولقوا بنت لوط تستقى ، فقالوا : ياجارية، هل من منزل ؟ فقالت : مكانكم حتى آتيكم، وفَرقت عليهم من قومها ، فأتت أباها فقالت: ياأبتاه ، أدرك فتيانا على باب المدينة ، ما رأيت وجوه قوم أحسن منهم، لا يأخذهم قومك فيفضحوهم، وكان قومه نهوه أن يضيف رجلا، فقالوا: خل عنا فلنُضيف الرجال. فجاء بهم، فلم يعلم بهم أحد إلا أهل بيته، فخرجت امرأته فأخبرت قومها ، فجاؤوا يهرعون إليه.

وقوله: ﴿ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ اى: يسرعون ويهرولون من فرحهم بذلك . وقوله: ﴿ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ أى: لم يزل هذا من سجيتهم حتى أخذوا وهم على ذلك الحال.

وقوله: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾: يرشدهم إلى نسائهم، فإن النبى للأمة بمنزلة الوالد ، فأرشدهم إلى ماهو أنفع لهم فى الدنيا والآخرة، كما قال لهم فى الآية الاخرى: ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ . وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٥، ١٦٦] ، وقوله فى الآية الاخرى : ﴿ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [الحجر: ٧٠] أى: ألم ننهك عن ضيافة الرجال﴿ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ . لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧١، ٧٢]، وقال فى هذه الآية الكريمة: ﴿ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ قال مجاهد: لم يكن بناته، ولكن كن من أمّته، وكل نبى أبو أمّته. وقال ابن جُرَيْج: أمرهم أن يتزوجوا النساء، لم يعرض عليهم سفاحا.

وقوله : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ﴾ أى : اقبلوا ما آمركم به من الاقتصار على نسائكم ﴿ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ أى: فيه خير، يقبل ما آمره به، ويترك ما أنهاه عنه ﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ ﴾ أى : إنك تعلم أن نساءنا لا أرب لنا فيهن ولانشتهيهن ﴿ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ أى: ليس لنا غرض إلا فى الذكور، وأنت تعلم ذلك، فأى حاجة فى تكرار القول علينا فى ذلك ؟ قال السدى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ : إنما نريد الرجال.

﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن نبيه لوط، عليه السلام: إن لوطا توعدهم بقوله : ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً ﴾ الآية ، أى: لكنت نكلت بكم وفعلت بكم الأفاعيل بنفسى وعشيرتى ، ولهذا ورد عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «رحمة الله على لوط، لقد كان يأوى إلى ركن شديد ـ يعنى: الله عز وجل ـ فما بعث الله بعده من نبى إلا فى ثروة من قومه » (١) . فعند ذلك أخبرته الملائكة أنهم رسُل الله إليه، وأنهم لاوصول لهم إليه ﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾، وأمروه أن يسرى بأهله من آخر الليل، وأن يتبع أدبارهم، أى: يكون ساقة لأهله، ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ اى: إذا سمعت ما نزل بهم، ولاتهولنكم تلك الأصوات المزعجة، ولكن استمروا ذاهبين . ﴿ إِلَّا امْرَأَتَكَ ﴾ : هو استثناء من قوله : ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾ .

ثم قرّبوا له هلاك قومه تبشيراً له؛ لأنه قال لهم: «أهلكوهم الساعة»، فقالوا: ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾، هذا وقومُ لُوطٍ وقُوف على الباب وعُكوف قد جاؤوا يُهرعون إليه من كل جانب، ولوط واقف على الباب يدافعهم ويردعهم وينهاهم عما هم فيه،وهم لايقبلون منه، بل يتوعدونه ، فعند ذلك خرج عليهم جبريل ، عليه السلام ، فضرب وجوههم بجناحه ، فطمس أعينهم ، فرجعوا وهم لا يهتدون الطريق ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ الآية [القمر: ٣٧]

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ وكان ذلك عند طلوع الشمس ﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا﴾ وهى قريتهم سَدُوم ﴿سَافِلَهَا﴾ كقوله : ﴿ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴾ [النجم : ٥٤] أى: أمطرنا عليها حجارة من «سجيل » ، وهى بالفارسية : حجارة من طين ، قاله ابن عباس وغيره. وقد قال فى الآية الأخرى : ﴿ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴾ [الذاريات : ٣٣] أى : مستحجرة قوية شديدة. وقال بعضهم: مشوية ، وقال البخارى: «سجيل»: الشديد الكبير ، سجيل وسجين واحد، اللام والنون أختان (٢) .

وقوله: ﴿ مَنضُودٌ ﴾: قال بعضهم: منضودة فى السماء، أى: معدة لذلك. وقال آخرون: أى: يتبع بعضها بعضا فى نزولها عليهم.وقوله: ﴿مُسَوَّمَةً ﴾ أى : مُعْلَمَة مختومة، عليها أسماء أصحابها، كل حجر مكتوب عليه اسم الذى ينزل عليه.

وذكروا أنها نزلت على أهل البلد، وعلى المتفرقين فى القرى مما حولها، فبينا أحدهم يكون عند الناس يتحدّث، إذ جاءه حجر من السماء فسقط عليه من بين الناس، فدمّره، فتتبعهم الحجارة من سائر

(١) الترمذى (٣١١٦) ، وقال : « حديث حسن » . (٢) فتح البارى (٨/ ٣٥٢) .

البلاد ، حتى أهلكتهم عن آخرهم فلم يبق منهم أحد. وقال مجاهد: أخذ جبريلُ قوم لوط من سَرْحهم ودورهم، حملهم بمواشيهم وأمتعتهم، ورفعهم حتى سمع أهل السماء نُباح كلابهم ثم أكفأهم، وكان حملهم على خوافى جناحه الأيمن. قال: ولما قلبها كان أول ما سقط منها شرفاتها .وعن قتادة وغيره: بلغنا أن جبريل، عليه السلام، لما أصبح نشر جناحه، فانتسف به أرضهم بما فيها من قُصُورها ودوابها وحجارتها وشجرها، وجميع ما فيها، فضمها فى جناحه، فحواها وطواها فى جوف جناحه، ثم صعد بها إلى السماء الدنيا، حتى سمع سكان السماء أصوات الناس والكلاب، .وكانوا أربعة آلاف ألف، ثم قلبها، فأرسلها إلى الأرض منكوسة، ودَمْدَم بعضها على بعض، فجعل عاليها سافلها، ثم أتبعها حجارة من سجيل. وقال السدى: لما أصبح قوم لوط، نزل جبريل فاقتلع الأرض من سبع أرضين، فحملها حتى بلغ بها السماء، حتى سمع أهل السماء الدنيا نباح كلابهم، وأصوات ديوكهم، ثم قلبها فقتلهم، فذلك قوله : ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ [النجم: ٥٣] ، ومن لم يمت حين سقط للأرض، أمطر الله عليه وهو تحت الأرض الحجارة، ومن كان منهم شاذا فى الأرض يتبعهم فى القرى، فكان الرجل يتحدث فيأتيه الحجر فيقتله، فذلك قوله عز وجل: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أى: فى القرى حجارة من سجيل .

وقوله: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ أى: وما هذه النقمة ممن تَشَبَّه بهم فى ظلمهم ، ببعيد عنه.

ربع ﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) ﴾

يقول تعالى: ولقد أرسلنا إلى مدين ، وهم قبيلة من العرب، كانوا يسكنون بين الحجاز والشام، قريباً من بلاد معان، فى بلد يعرف بهم، يقال لها «مدين» فأرسل الله إليهم شعيبا، وكان من أشرفهم نسبًا ؛ ولهذا قال: ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ يأمرهم بعبادة الله تعالى وحده، وينهاهم عن التطفيف فى المكيال والميزان ﴿ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أى: فى معيشتكم ورزقكم فأخاف أن تُسلَبوا ما أنتم فيه بانتهاككم محارم الله ﴿ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ أى : فى الدار الآخرة.

﴿ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (٨٦) ﴾

ينهاهم أولا عن نقص المكيال والميزان إذا أعطوا الناس، ثم أمرهم بوفاء الكيل والوزن بالقسط آخذين ومعطين، ونهاهم عن العثو فى الأرض بالفساد، وقد كانوا يقطعون الطريق.

وقوله: ﴿ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ قال ابن عباس: رزق الله خَيْر لكم. وقال الربيع بن أنس: وصية الله خير لكم. وقال مجاهد: طاعة الله . وقال قتادة: حظكم من الله خير لكم. وقال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم: «الهلاك» فى العذاب، و«البقية» فى الرحمة. وقال ابن جرير: ﴿ بَقِيَّتُ اللَّهِ ﴾ أى : ما يفضُل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أى : من أخذ أموال الناس ، قال: وقد روى هذا عن ابن عباس. قلت: ويشبه قوله تعالى: ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ﴾ [المائدة: ١٠٠]

وقوله : ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أى : برقيب ولا حفيظ، أى: افعلوا ذلك لله عز وجل لا تفعلوه

ليراكم الناس، بل لله عز وجل.

﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ﴾

يقولون له على سبيل التهكم ، قبّحهم الله : ﴿ أصلاتك ﴾ قال الاعمش : اى: قراءتك ﴿تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا﴾ اى: الاوثان والاصنام ﴿أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء﴾، فنترك التطفيف على قولك: هى أموالنا نفعل فيها ما نريد. قال الحسن فى قوله: ﴿أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا﴾: إى والله، إن صلاته لتأمرهم أن يتركوا ما كان يعبد آباؤهم. وقال الثورى فى قوله: ﴿ أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء﴾: يعنون الزكاة.

وقولهم: ﴿إنك لأنت الحليم الرشيد﴾: قال ابن عباس وابن جرير وغيرهما: يقولون ذلك ـ أعداء الله ـ على سبيل الاستهزاء ، قبحهم الله ولعنهم عن رحمته ، وقد فعل.

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾

يقول لهم : أرأيتم يا قوم ﴿ إن كنت على بينة من ربي ﴾ اى : على بصيرة فيما أدعو إليه ﴿ ورزقني منه رزقا حسنا ﴾ ، قيل: أراد النبوة. وقيل: أراد الرزق الحلال، ويحتمل الأمرين. وقال الثورى: ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾ اى: لا انهاكم عن شىء واخالف أنا فى السر فافعله خفية عنكم ، كما قال قتادة: لم أكن لأنهاكم عن امر واركبه ﴿ إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ﴾ اى : فيما آمركم وانهاكم ، إنما مرادى إصلاحكم جهدى وطاقتى ﴿ وما توفيقي ﴾ اى : فى إصابة الحق فيما اريده ﴿ إلا بالله عليه توكلت ﴾ فى جميع أمورى ﴿ وإليه أنيب﴾ اى: ارجع .

وروى أحمد عن بَهْز بن حكيم، عن أبيه، عن جده قال: أخذ النبى ﷺ ناساً من قومى فى تُهمة فحبسهم، فجاء رجل من قومى إلى رسول الله ﷺ وهو يخطب، فقال: يا محمد، علام تحبس جيرتى؟ فصمت رسول الله ﷺ [عنه] فقال: إن ناساً ليقولون: إنك تنهى عن الشىء وتستخلى به، فقال النبى ﷺ : «ما يقول؟» قال: فجعلت أعرض بينهما الكلام مخافة أن يسمعها فيدعو على قومى دَعوة لا يفلحون بعدها أبداً، فلم يزل رسول الله ﷺ به حتى فهمها، فقال: «أو قد قالوها ـ أو: قائلها منهم ـ والله لو فعلتُ لكان علىّ وما كان عليهم، خلوا له عن جيرانه »[1] . ومن هذا القبيل الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن عبد الملك بن سعيد بن سويد الأنصارى قال: سمعت أبا حميد وأبا أسيد يقولان : قال رسول الله ﷺ : « إذا سمعتم الحديث عنى تعرفه قلوبكم ، وتلين له أشعاركم وأبشاركم ، وترون أنه منكم قريب، فأنا أولاكم به ، وإذا سمعتم الحديث عنى تُنكره قلوبكم ، وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم ، وترون أنه منكم بعيد فأنا أبعدكم منه »[2] . هذا إسناد صحيح ، ومعناه ـ والله أعلم ـ: مهما بلغكم عنى من خير فأنا أولاكم به ومهما يكن من مكروه فأنا أبعدكم منه ﴿ وما

(١) المسند (٥/ ٢) ، ورواه الترمذى ـ مختصراً ـ (١٤١٧) وقال : « حديث حسن » ، وما بين المعقوفتين من المسند.
(٢) المسند (٣/ ٤٩٧) ، وقال الهيثمى فى الزوائد (١/ ١٥٥) : « رجاله رجال الصحيح » .

أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ .

وقال أبو سليمان الضبى : كانت تجيئنا كتب عمر بن عبد العزيز فيها الأمر والنهى، فيكتب فى آخرها : وما كنت من ذلك إلا كما قال العبد الصالح : ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ .

﴿ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ ﴾

يقول لهم: ﴿ وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾ أى: لاتحملنكم عداوتى وبغضى على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد، فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط من النقمة والعذاب.

وقوله: ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ يعنى : إنما أهلكوا بين أيديكم بالأمس، وقيل: فى المكان، ويحتمل الأمران، ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ أى: استغفروه من سالف الذنوب، وتوبوا فيما تستقبلونه من الأعمال السيئة ﴿ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ أى : لمن تاب وأناب .

﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ ﴾

يقولون : ﴿ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ ﴾ أى : مانفهم ﴿ كَثِيرًا ﴾ من قولك ﴿ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾ . قال السدى: أى أنت واحد . وقال أبو روق: يعنون: ذليلا ؛ لأن عشيرتك ليسوا على دينك . ﴿ وَلَوْلا رَهْطُكَ﴾ أى: قومك وعشيرتك؛ لولا معزة قومك علينا ﴿ لَرَجَمْنَاكَ ﴾ قيل : بالحجارة ، وقيل : لسببناك ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ أى : ليس لك عندنا معزة. ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ﴾: يقول: أتتركونى لأجل قومى، ولاتتركونى إعظاما لجناب الله أن تنالوا نبيه بمساءة ، وقد اتخذتم جانب الله ﴿ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ أى: نبذتموه خلفكم، لاتطيعونه ولاتعظمونه ﴿ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أى : هو يعلم جميع أعمالكم وسيجزيكم بها.

﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾

لما يئس نبى الله شعيب من استجابتهم له ، قال : ﴿ يَاقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ أى: على طريقتكم، وهذا تهديد شديد، ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ على طريقتى ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ أى: منى ومنكم ﴿ وَارْتَقِبُوا ﴾ أى: انتظروا ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي

دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ أى: هامدين لاحراك بهم. وذكر هاهنا أنهم أتتهم صيحة ، وفى الأعراف رجفة ، وفى الشعراء عذاب يوم الظلة ، وهم أمة واحدة، اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها . وإنما ذكر فى كل سياق ما يناسبه، ففى الأعراف لما قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا﴾ [الاعراف:٨٨] ، ناسب أن يذكر هناك الرجفة، فرجفت بهم الأرض التى ظلموا بها، وأرادوا إخراج نبيهم منها، وهاهنا لما أساؤوا الأدب فى مقالتهم على نبيهم ناسب ذكر الصيحة التى استلبتهم وأخمدتهم ، وفى الشعراء لما قالوا: ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الشعراء : ١٨٧] ، قال: ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء: ١٨٩]،وهذا من الأسرار الدقيقة ،ولله الحمد والمنة كثيراً دائماً.

وقوله: ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ أى: يعيشوا فى دارهم قبل ذلك ، ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ وكانوا جيرانهم قريباً منهم فى الدار،وشبيهاً بهم فى الكفر وقطع الطريق، وكانوا عرباً مثلهم .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن إرساله موسى، عليه السلام، بآياته ودلالاته الباهرة إلى فرعون ، وهو ملك القبط وملئه ﴿ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ أى: مسلكه ومنهجه وطريقته فى الغى ﴿ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ أى: ليس فيه رشد ولا هدى، وإنما هو جهل وضلال، وكفر وعناد، وكما أنهم اتبعوه فى الدنيا، وكان مُقدمهم ورئيسهم، كذلك هو يَقْدُمهم يوم القيامة إلى نار جهنم، وله فى ذلك الحظ الأوفر، من العذاب الأكبر ،كما قال تعالى: ﴿ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾ [المزمل:١٦]،وقال تعالى: ﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ. ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ. فَحَشَرَ فَنَادَىٰ. فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ. فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ. إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [النازعات:٢١ ـ ٢٦] ، وقال تعالى: ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴾ ، وكذلك شأن المتبوعين يكونون مُوفرين فى العذاب يوم المعاد ، كما قال تعالى : ﴿ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾ [الاعراف:٣٨] ، وقال تعالى إخباراً عن الكَفَرة أنهم يقولون فى النار: ﴿ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا. رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ الآية [الاحزاب: ٦٧، ٦٨].

وقوله: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴾أى: أتبعناهم زيادة على ما جاريناهم من عذاب النار لعنة فى هذه الحياة الدنيا ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴾ قال مجاهد: زيدوا لعنة يوم القيامة، فتلك لعنتان. وقال ابن عباس : ﴿ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴾ قال: لعنة الدنيا والآخرة، وكذا قال الضحاك، وقتادة ، وهو كقوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ. وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ [القصص: ٤١، ٤٢] ، وقال تعالى: ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٦] .

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ ﴾

لما ذكر تعالى خبر هؤلاء الأنبياء، وماجرى لهم مع أممهم، وكيف أهلك الكافرين ونَجّى المؤمنين قال : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَى﴾ أى : أخبارهم ﴿ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ ﴾ اى : عامر ﴿وَحَصِيدٌ ﴾ اى: هالك ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ﴾ اى : إذ أهلكناهم ﴿ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ بتكذيبهم رسلنا وكفرهم بهم ﴿ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ ﴾ أوثانهم التى كانوا يعبدونها ويدعونها ﴿ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ مانفعوهم ولا أنقذوهم لما جاء أمر الله بإهلاكهم ﴿ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ اى : غير تخسير، وذلك أن سبب هلاكهم ودمارهم إنما كان باتباعهم تلك الآلهة وعبادتهم إياها ، فبهذا أصابهم ما أصابهم، وخسروا بهم، فى الدنيا والآخرة.

﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾

يقول تعالى:وكما أهلكنا أولئك القرون الظالمة المكذبة لرسلنا كذلك نفعل ﴿ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ وفى الصحيحين عن أبى موسى قال: قال رسول الله ﷺ : «إن الله ليُملى للظالم، حتى إذا أخذه لم يُفلته»، ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ الآية (١) .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾

يقول تعالى : إن فى إهلاكنا الكافرين وإنجائنا المؤمنين ﴿ لَآيَةً ﴾ أى : عظة واعتبارا على صدق موعودنا فى الآخرة ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر:٥١] ، وقال تعالى: ﴿ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴾ الآية [إبراهيم: ١٣، ١٤].

وقوله : ﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ ﴾ أى : أولهم وآخرهم كقوله : ﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف:٤٧]. ﴿ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ أى: عظيم تحضره الملائكة ، ويجتمع فيه الرسل ، وتحشر الخلائق بأسرهم، من الإنس والجن والطير والوحوش والدواب، ويحكم فيه العادل الذى لا يظلم مثقال ذرة، وإن تك حسنة يضاعفها.

وقوله: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ أى: ما نؤخر إقامة القيامة إلا أنه قد سبقت كلمة الله وقضاؤه وقدره ، فى وجود أناس معدودين من ذرية آدم، وضرب مدة معينة إذا انقطعت وتكامل وجود أولئك المقدر خروجهم قامت الساعة ؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ اى: لمدة مؤقتة لا يزاد عليها ولا ينتقص منها ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ يقول: يوم يأتى يوم القيامة، لا يتكلم أحد إلا بإذن الله كقوله : ﴿ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ [النبا:٣٨]، وقال تعالى: ﴿ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ ﴾ الآية [طه:١٠٨] ، وفى الصحيحين من حديث الشفاعة : « ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل، ودعوى الرسل يومئذ: اللهم سَلّم سلم »(٢) .

وقوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾أى: فمن أهل الجمع شقى ومنهم سعيد، كما قال: ﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ [الشورى:٧]. ثم بين تعالى حال الأشقياء وحال السعداء، فقال:

---

(١) البخارى (٤٦٨٦) ، ومسلم (٢٥٨٣/٦١) . (٢) البخارى (٨٠٦) ، ومسلم (١٨٢/٢٩٩) .

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۝ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ۝ ﴾

يقول تعالى: ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ قال ابن عباس: الزفير فى الحلق، والشهيق فى الصدر أى: تنفسهم زفير، وأخذهم النفس شهيق، لما هم فيه من العذاب، عياذاً بالله من ذلك. ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ : قال ابن جرير: من عادة العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالدوام أبداً قالت: «هذا دائم دوامَ السموات والأرض»، وكذلك يقولون: هو باق ما اختلف الليلُ والنهار، يعنون بذلك كلمة: « أبدا »، فخاطبهم جل ثناؤه بما يتعارفونه بينهم، فقال: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾.

قلت: ويحتمل أن المراد بما دامت السموات والأرض: الجنس؛ لأنه لابدّ فى عالم الآخرة من سموات وأرض، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [إبراهيم:٤٨] ؛ ولهذا قال الحسن البصرى فى قوله: ﴿ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾، قال: تبدل سماء غير هذه السماء، وأرض غير هذه الأرض، فما دامت تلك السماء وتلك الأرض. وقال ابن عباس قوله : ﴿ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ قال: لكل جنة سماء وأرض. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: مادامت الأرض أرضاً، والسماء سماءً.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الانعام: ١٢٨] .وقد اختلف المفسرون فى المراد من هذا الاستثناء ، على أقوال كثيرة ، [نقل كثيراً منها ابن جرير واختار ما روى] عن ابن عباس والحسن : أن الاستثناء عائد على العُصاة من أهل التوحيد ، ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين ، من الملائكة والنبيين والمؤمنين ، حين يشفعون فى أصحاب الكبائر ، ثم تأتى رحمة أرحم الراحمين ، فتخرج من النار من لم يعمل خيرا قط ، وقال يوما من الدهر : لا إله إلا الله . كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة . وهذا الذى عليه كثير من العلماء قديماً وحديثاً فى تفسير هذه الآية الكريمة. وقال السدى: هى منسوخة بقوله: ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ [النساء:٥٧] .

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ۝ ﴾

يقول تعالى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا ﴾ وهم أتباع الرسل ﴿ فَفِي الْجَنَّةِ ﴾ أى : فمأواهم الجنة، ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أى: مقيمين فيها أبدا ﴿ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ معنى الاستثناء هاهنا: أن دوامهم فيما هم فيه من النعيم، ليس أمرا واجبا بذاته، بل هو موكول إلى مشيئة الله تعالى، فله المنة عليهم دائماً ، ولهذا يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النَّفَس . وقال الضحاك ، والحسن البصرى: هى فى حق عصاة الموحدين الذين كانوا فى النار، ثم أخرجوا منها. وعقب ذلك بقوله: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ أى: غير مقطوع، قاله ابن عباس، ومجاهد وغير واحد، لئلا يتوهم متوهم بعد ذكره المشيئة أن ثم انقطاعاً، أو لبسا ، أو شيئًا ، بل ختم له بالدوام وعدم الانقطاع ، كما بين هناك أن عذاب أهل النار فى النار دائما مردود إلى مشيئته، وأنه بعدْله وحكمته عذبهم؛ ولهذا قال: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾ [هود:١٠٧]، كما قال: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٣] ، وهنا طيب القلوب وثبّت المقصود

بقوله: ﴿ عطاءً غير مجذوذٍ ﴾.

وقد جاء في الصحيحين: « يؤتى بالموت في صورة كَبْش أمْلَح، فيذبح بين الجنة والنار ، ثم يقال: يا أهل الجنة، خُلُود فلا موت، ويا أهل النار، خلود فلا موت » [١] . وفي الصحيح : « فيقال : يا أهل الجنة، إن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبدا، وإن لكم أن تشبوا فلا تَهْرَموا أبدا، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا » [٢] .

﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ۝ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ۝ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝ ﴾

يقول تعالى : ﴿ فلا تكُ في مريةٍ مما يعبُدُ هؤلاء ﴾ المشركون ، إنه باطل وجهل وضلال، فإنهم إنما يعبدون مايعبد آباؤهم من قبل، أي: ليس لهم مُستَنَد فيما هم فيه إلا اتباع الآباء في الجهالات، وسيجزيهم الله على ذلك أتم الجزاء فيعذب كافرهم عذاباً لا يعذبه أحدا من العالمين، وإن كان لهم حسنات فقد وفاهم الله إياها في الدنيا قبل الآخرة . قال ابن عباس: ﴿ وإنَّا لموفُّوهم نصيبهم غير منقوص ﴾ ، قال: ما وعدوا فيه من خير أو شر. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لموفوهم من العذاب نصيبهم غير منقوص.

ثم ذكر تعالى أنه آتى موسى الكتاب، فاختلف الناس فيه، فمن مؤمن به، ومن كافر به، فلك بمن سلف من الأنبياء قبلك يامحمد أسوة، فلا يغيظنك تكذيبهم لك ، ولا يهمنك ذلك. ﴿ولولا كلمةٌ سبقت من ربِّك لقضي بينهم﴾ قال ابن جرير: لولا ماتقدم من تأجيله العذاب إلى أجل معلوم، لقضى الله بينهم. ويحتمل أن يكون المراد بالكلمة أنه لا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه ، وإرسال الرسول إليه، كما قال : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ [الإسراء:١٥] ؛ فإنه قد قال في الآية الأخرى : ﴿ ولولا كلمةٌ سبقت من ربك لكان لزاما وأجلٌ مسمًّى. فاصبر على ما يقولون ﴾ [طه:١٢٩، ١٣٠] . [ثم أخبر أن الكافرين في شك ـ مما جاءهم به الرسول ـ قوي، فقال: ﴿ وإنهم لفي شكٍّ منه مريبٍ﴾] [٣] .

ثم أخبرنا تعالى أنه سيجمع الأولين والآخرين من الأمم، ويجزيهم بأعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فقال: ﴿ وإنَّ كلاًّ لما ليوفينهم ربك أعمالهم إنه بما يعملون خبيرٌ ﴾ أي : عليم بأعمالهم جميعًا ، جليلها وحقيرها ، صغيرها وكبيرها.

﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝ ﴾

يأمر تعالى رسوله وعباده المؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة، وذلك من أكبر العون على

(١) البخاري (٤٧٣٠) ، ومسلم (٢٨٤٩/ ٤٠) . (٢) مسلم (٢٨٣٧/ ٨) .
(٣) ما بين المعقوفتين ساقط من المطبوعة ، وأثبتناه من المخطوطة .

النصر على الأعداء ومخالفة الأضداد ونهى عن الطغيان، وهو البغى، فإنه مَصرَعة حتى ولو كان على مشرك. واعلم تعالى أنه بصير بأعمال العباد، لا يغفل عن شىء، ولا يخفى عليه شىء.

وقوله: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ : قال ابن عباس: ولا تميلوا إلى الذين ظلموا ، أى: لا تستعينوا بالظلمة فتكونوا كأنكم قد رضيتم ببافى صنيعهم ﴿ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ اى : ليس لكم من دونه من ولى ينقذكم ، ولاناصر يخلصكم من عذابه.

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ ۚ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾

قال ابن عباس : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ ﴾ قال : يعنى الصبح والمغرب ، وكذا قال الحسن، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقال مجاهد: هى الصبح فى أول النهار، والظهر والعصر من آخره .

وقوله: ﴿ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وغيرهم: يعنى صلاة العشاء. وقال الحسن ـ فى رواية ـ يعنى: المغرب والعشاء. وكذا قال قتادة، والضحاك وغيرهما: إنها صلاة المغرب والعشاء. وقد يحتمل أن تكون هذه الآية نزلت قبل فرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء؛ فإنه إنما كان يجب من الصلاة صلاتان: صلاة قبل طلوع الشمس، وصلاة قبل غروبها. وفى أثناء الليل قيام عليه وعلى الأمة، ثم نسخ فى حق الأمة، وثبت وجوبه عليه، ثم نسخ عنه أيضاً، فى قول، والله أعلم.

وقوله: ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾، يقول: إن فعل الخيرات يكفر الذنوب السالفة، كما جاء فى الصحيحين عن عثمان بن عفان: أنه توضأ لهم كوُضوء رسول الله ﷺ ، ثم قال: هكذا رأيتُ رسول الله يتوضأ، وقال: «من توضأ نحو وضوئى هذا، ثم صلى ركعتين لا يُحَدِّث فيهما نفسه ، غُفِرَ له ماتقدم من ذنبه » (١). وفى الصحيح عن أبى هريرة ، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أرأيتم لو أن بباب أحدكم نهراً غَمْراً يغتسل فيه كل يوم خمس مرات، هل يُبقى من درنه شيئا؟ » قالوا: لا، يا رسول الله. قال: «وكذلك الصلوات الخمس ، يمحو الله بهن الذنوب والخطايا » (٢). وروى مسلم عن أبى هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ كان يقول: « الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان ، مُكَفِّرَات ما بينهن إذا اجتنبت الكبائر » (٣). وروى البخارى عن ابن مسعود ؛ أن رجلا أصاب من امرأة قُبْلَة، فأتى النبى ﷺ فأخبره ، فأنزل الله: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ فقال الرجل : ألى هذا يا رسول الله ؟ قال : « لجميع أمتى كلهم » . ورواه مسلم ، وأحمد ، وأهل السنن إلا أبا داود (٤) . وروى الإمام أحمد عن أبى ذر ؛ أن رسول الله ﷺ قال : «اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » (٥) .

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا

---

(١) البخارى (١٥٩) ، ومسلم (٢٤٥/ ٣٣) . (٢) البخارى (٥٢٨) ، ومسلم (٦٦٧/ ٢٨٣) .
(٣) مسلم (٢٣٣/ ١٤) .
(٤) المسند (١/ ٣٨٥) ، والبخارى (٥٢٦، ٤٦٨٧) ، ومسلم (٢٧٦٣/ ٣٩) ، والترمذى (٣١١٤) .
(٥) المسند (٥/ ١٥٣) ، والحديث رواه الترمذى (١٩٨٧) ، وقال : « حسن صحيح » .

﴿مِنْهُمْ ۚ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾

يقول تعالى: فهلا وجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير، ينهون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد فى الأرض. وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أى: قد وُجد منهم من هذا الضرب قليل، لم يكونوا كثيرا، وهم الذين انجاهم الله عند حلول غضبه ، وفجاءة نقْمَته ؛ ولهذا أمر تعالى هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]. وفى الحديث: «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيّروه، أوشك ان يَعُمَّهُم الله بعقاب» (١) ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾.

وقوله: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ أى: استمروا على ما هم فيه من المعاصى والمنكرات، ولم يلتفتوا إلى إنكار أولئك، حتى فَجَأهم العذابُ ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾.

ثم أخبر تعالى أنه لم يهلك قرية إلا وهى ظالمة ، ولم يات قرية مصلحة بأسه وعذابه قط حتى يكونوا هم الظالمين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠١] .

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾

يخبر تعالى أنه قادر على جعل الناس كُلِّهم امة واحدة، من إيمان أو كفران، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩].

وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ أى : ولا يزال الخُلْفُ بين الناس فى أديانهم واعتقادات مللهم ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم. وقوله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ أى: إلا المرحومين من أتباع الرسل ، الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين . أخبرتهم به رسل الله إليهم ، ولم يزل ذلك دأبهم ، حتى كان النبى ﷺ الامى خاتم الرسل والأنبياء، فاتبعوه وصدقوه، ونصروه ووازروه، ففازوا بسعادة الدنيا والآخرة؛ لأنهم الفرقة الناجية، كما جاء فى الحديث المروى فى المسانيد والسنن، من طرق يشد بعضها بعضا: «إن اليهود افترقت على إحدى وسبعين فرقة، وإن النصارى افترقوا على ثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة، كلها فى النار إلا فرقة واحدة». قالوا: ومن هم يا رسول الله ؟ قال : «ما أنا عليه وأصحابى» (٢). وقال قتادة: أهلُ رحمة الله أهلُ الجماعة، وإن تفرقت ديارهم وأبدانهم، وأهل معصيته أهل فرقة، وإن اجتمعت ديارهم وأبدانهم.

وقوله: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قال الحسن البصرى ـ فى رواية عنه ـ: وللاختلاف خَلَقَهم. وقال ابن عباس: خلقهم فريقين، كقوله : ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود : ١٠٥] . وقيل : للرحمة خلقهم. وعن

(١) المسند (٢) وقال الشيخ أحمد شاكر : «إسناده صحيح»، وأبو داود (٤٣٣٨) ، والترمذى (٣٠٥٧) ، وقال : «حسن صحيح»، وابن ماجه (٤٠٠٥) .

(٢) راجع تخريجه عند تفسير الآية (٩٣) من سورة يونس .

ابن عباس قال : للرحمة خلقهم ولم يخلقهم للعذاب . وكذا قال مجاهد والضحاك وقتادة. ويرجع معنى هذا القول إلى قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]. وقيل: بل المراد : وللرحمة والاختلاف خلقهم ، كما قال الحسن البصرى فى رواية عنه فى قوله : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ قال : الناس مختلفون على أديان شتى ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ ، فمن رحم ربك غير مختلف. قيل له: فلذلك خلقهم ؟ قال : خلق هؤلاء لجنته، وخلق هؤلاء لناره ، وخلق هؤلاء لرحمته، وخلق هؤلاء لعذابه. وقال ابن وَهْب: سألت مالكا عن قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ قال: فريق فى الجنة وفريق فى السعير . وقد اختار هذا القول ابن جرير .

وقوله: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ : يخبر تعالى أنه قد سبق فى قضائه وقدره، لعلمه التام وحكمته النافذة، أن ممن خلقه من يستحق الجنة، ومنهم من يستحق النار ، وأنه لابد أن يملأ جهنم من هذين الثقلين الجن والإنس، وله الحجة البالغة والحكمة التامة. وفى الصحيحين عن أبى هريرة ، قال: قال رسول الله ﷺ : « اختصمت الجنة والنار ، فقالت الجنة : مالى لا يدخلنى إلا ضَعَفَةُ الناس وسَقَطُهم ؟ وقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين. فقال الله عز وجل للجنة: أنت رحمتى أرحم بك من أشاء. وقال للنار: أنت عذابى، أنتقم بك ممن أشاء، ولكل واحدة منكما ملؤها. فأما الجنة فلا يزال فيها فضل، حتى ينشئ الله لها خلقا يسكن فضل الجنة، وأما النار فلا تزال تقول: هل من مزيد؟ حتى يضع عليها ربّ العزة قَدمه، فتقول: قَطْ قط، وعزتك »(١) .

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾

يقول تعالى: وكل أخبار نقصها عليك، من أنباء الرسل المتقدمين قبلك مع أممهم، وكيف جرى لهم من المحاجات والخصومات، وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى، وكيف نصر الله حزبه المؤمنين وخذل أعداءه الكافرين ـ كل هذا مما نثبت به فؤادك ـ يا محمد ـ أى: قلبك، ليكون لك بمن مضى من إخوانك من المرسلين أسوة.

وقوله: ﴿ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ ﴾ أى: فى هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء وكيف نَجّاهم الله والمؤمنين بهم، وأهلك الكافرين، جاءك فيها قَصَص حق، ونبأ صدق، وموعظة يرتدع بها الكافرون ، وذكرى يتذكر بها المؤمنون .

﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

يقول تعالى آمرا رسوله أن يقول للذين لا يؤمنون بما جاء به من ربه على وجه التهديد : ﴿ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ أى: على طريقتكم ومنهجكم ﴿ إِنَّا عَامِلُونَ ﴾ أى : على طريقتنا ومنهجنا ﴿ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ أى: فستعلمون من تكون له عاقبة الدار، إنه لا يفلح الظالمون. وقد أنجز الله لرسوله وعده، ونصره وأيده، وجعل كلمته هى العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، والله عزيز حكيم.

(١) البخارى (٧٤٤٩) ، ومسلم (٢٨٤٦/ ٣٤) .

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه عالم غيب السموات والأرض، وأنه إليه المرجع والمآب، وسيؤتى كل عامل عمله يوم الحساب، فله الخلق والأمر. فأمر تعالى بعبادته والتوكل عليه؛ فإنه كاف من توكل عليه وأناب إليه. وقوله: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ اى : ليس يخفى عليه ما عليه مكذبوك يا محمد، بل هو عليم بأحوالهم وأقوالهم وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء فى الدنيا والآخرة، وسينصرك وحزبك عليهم فى الدارين .